عنترة التاريخ وعنترة الاسطورة

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

ديانته — اخلاقه وصفاته

نصرانيته

تباينت الآراء في دين عنترة تباينها في دين اكثر الشعراء الجاهليين . وقد قُيّض لنا في الاعداد التي ظهرت من « الروائع » ان نلخّص بعضها في ما خصّ دين امرئ القيس[١] ، وطرفة[٢] ، وزهير[٣] ، وعمرو بن كلثوم والحرث بن حلزة[٤] . اما عنترة فاشهر الاقوال في دينه قول المرحوم الاب لويس شيخو الذي جعله من « شعراء النصرانية » وبسط براهينه في عدة ظروف ، بعد ان اجملها في كتابه « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » وهي ترد الى ما يلي :

١ ــ نصرانية امّه الحبشية ، والحبش نصارى كما هو معروف.

٢ ــ الآثار العديدة الدالة على التوحيد الظاهر في شعره ، الصحيح والمصنوع ؛ والتوحيد ، قبل محمد ، لم يشع في جزيرة العرب الا بفضل النصرانية.

٣ ــ وجوده في خدمة الملك زهير وابنه قيس ، وهما نصرانيان[٥].

ومهما يكن من صراحة النصرانية في معتقدات عنترة ، فاننا نرى في سلوكه نهجاً حسناً لا نخطئ اذا شبهناه بتأثير الفضائل المسيحية:

---

١) الروائع ٧ : ل
٢) الروائع ٢٥ : ز
٣) الروائع ٢٤ : يد
٤) الروائع ٢٦ : ط
٥) الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ص ٤٣٩.

عفّته — ترفّعه

من ذلك عفّته المشهورة التي افتخر بها في بعض ابياته ، وهي ما يحقّ به الافتخار في محيطه وزمانه ، فقال :

اغشى فتاة الحيّ ، عند حليلها ، واذا غزا في الجيش لا اغشاها ،
واغضّ طرفي ، ما بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأواها (١

فسار ذلك عنه مسير المثل ، وساعد انتشارَه انغماسُ اكثر ابطال العرب وشعرائهم ، في الجاهلية والاسلام ، في الملاهي والملذّات على اختلاف انواعها حتى اصبحت العفة فيهم من الامور المستغربة ، مما دفع ابن عبد ربه الى القول ، عن لسان بعضهم :

« وددت لو ان لنا ، مع اسلامنا ، كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية ! الا ترى عنترة الفوارس جاهلي لا دين له[٢] ، والحسن بن هانئ ، اسلامي له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه ، فقال عنترة :

واغضّ طرفي ، ان بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأواها .

وقال الحسن بن هانئ ، مع اسلامه :

كان الشباب مطيّة الجهل ومحسّن الضحكات والهزل . . . الخ (٣

ولم يكن من نتائج عفّة عنترة الترفّع عن الملذات المحرّمة فحسب ، بل تجاوزت عفّته ذلك الى الماديّات ، فكان يقرن الى بطشه بالاعداء الترفّع عن اغتنام الاسلاب ، فاذا «غشي الوغى ، عفّ عند المغنم» كما قال في المعلقة[٤] ، وكما تردّد ذكر ذلك في الكثير من شعره الصحيح والمنحول

سهولة خُلقه — كرمه

وكما كان يعفّ عند اغتنام الاسلاب ، كذلك كان يترفّع عن الاساءة

١) اطلب الروائع ٢٧ : ٢٧ .
٢) قال ذلك جريًا مع الوهم السائد انه لا دين ولا مدنية يستحقان الذكر في زمن « الجاهلية » .
٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد — الروائع ٩ : ٦١ ٤) المعلقة : ٤٧ .

الى الغير ، فكان لطيف المعشر ، سهل المخالقة[1] ، مبتعداً جهده عن الظلم ، الا اذا ظُلم ، وكثيراً ما كان يظلمه قومه ، فيجازيهم اذ ذاك

بظلم باسل ، مرّ مذاقته كطعم العلقم[2] (٢

اما ايام يصفو له الدهر ، فلم يكن يتأبى ما كان يتاح اليه سراة العرب من مجالس الانس واللهو ، فكان يجيل القداح ، ويعاقر الخمرة الجيدة المصفاة ؛ الا انه كان يفوق رفاقه رزانةً وتحفظاً ، حال شربه . فاذا استهلك ماله ، ظلّ محافظاً على شرفه ، واذا صحا من السكر ، لم يندم على تكرّمه السابق ، بل اردف العطاء بالعطاء ، مما يدلّ على ان الكرم فيه سجيّة وليس من مفاعيل السكر[3] .

واذا اضفنا الى هذا ما اشتهر عن حلم عنترة وصبره وترفعه عن الدنايا جملةً ، فهمنا القول الذي نُسب الى النبي محمد ، اذ أنشد بيت عنترة :

ولقد ابيت على الطوى واظله حتى اال به كريمَ المأكل

فقال : « ما وُصف لي اعرابي قطّ ، فاحببت ان اراه الا عنترة ! »[4] .

شجاعته — فروسيته

اما شجاعة عنترة فحدّث عنها ولا حرج ، وقد ملأ القصائد العديدة بذكر آثارها ومفاعيلها ، من خوض مخاطر ، واقتحام جيوش ، وقتل ابطال ، واخذ ثارات . الا ان شجاعته هذه ، كما نراها موصوفة في كتب التاريخ ، تظهر بعيدة عن التهوّر المُضحك الخاص بالحمقى من رجال الحرب ، كما انها تظهر بعيدة ايضاً عن الحميّة المجرّدة والمروءة الخالصة التي تدفع رجال «الفروسية» وكبار الابطال الى نجدة المستغيث في ايّ ظرف كان ، فيرتمون في المخاطر دون حساب للعواقب ، بل دون نظر في من هو هذا المستغيث . مما لا شك فيه ان عنترة كان شجاعاً ، ولكنه كان مقتصداً في شجاعته ، مفكراً في طريقة استعمالها ، لا يبذل منها الا بمقدار ، مجتهداً في استعمال هذا المقدار

١) المعلقة : ٢٦ ٢) المعلقة : ٢٧
٣) المعلقة : ٣٨ — ٤٢ ٤) الاغاني ٧ : ١٥١ .

القليل لنيل الكثير من التأثير ، كما ذكر عنه صاحب الاغاني ، في سلسلة من الاسانيد ، تقال: قيل لعنترة : « انت اشجع العرب واشدّها ؟ » قال: « لا » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا ادخل موضعاً لا ارى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان ، فاضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع ، فاثني عليه واقتله . »[1]

سيرة عنتر

هذا « عنترة التاريخ » ، كما تمكنا من معرفته احاديث الرواة وابيات شعره من التي لا يكاد يُشكّ في صحة نسبتها . اما « عنترة الاسطورة » ، او « عنتر » بحذف التاء[2] ، فهو تلك الشخصية المرتفعة حتى ارقى درجات البطولة ، المزدانة باسمى فضائل الفروسية ، الجامعة بين جرأة الشجعان لا يهابون من المخاطر شيئاً ولا يتراجعون امام اجتراح الخوارق والمعجزات ، وعطف السراة المقتدرين يحنون على الارامل والايتام فينصفون المظلوم وينتقمون من الظالم ، مضحّين براحتهم ووقتهم وانفسهم في سبيل ما ينيلهم الفخر الحقيقي والمجد الدائم . هذه الشخصية البارزة ، الخالية من الشوائب ، الظاهرة مثلاً اعلى « للفارس الكامل » ، تبدو لنا في مجلدات القصة الكبيرة المشهورة بين جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مللهم ونحلهم ، المعروفة « بسيرة عنتر » ،

١) الاغاني ٧ : ١٥٨ .

٢) أسقطت تاء التأنيث من اسم « عنترة » لكثرة التداول ، ولان الاسم بصيغة المذكر يحدث مفعولاً اعظم في عقول جمهرة الناس من سماع الاحاديث والقصص . اما ما لاحظه المستشرق هرتمن (Hartmann) ، في مجلة الاسلام « *Encycl. de l'Islam I, 366* » ، من ان اسم « عنترة » يظهر بصيغة المذكر في شرح حماسة ابي تمام (المجلد الاول ، ص ١٠٨) فلا نرى له كبير اهمية ، لان الشارح لا يشير خاصة الى اسم « عنترة » بل هو يشرح اللفظة شرحاً لغوياً في كلامه عن عنترة بن الاخرس فيقول : « قال ابو الفتح : العنتر والعنترة جميعاً للذباب الازرق ، فهو مذكر ايضاً . . . وقال ابو الملاء : « عنترة مسمّى بالواحد من الذباب ، يُقال : عنترة وعنتر في الجمع . . .الخ » (حماسة ابي تمام ١ : ١٠٨) — وقد ورد الاسم ، بصيغة المذكر ، في شعر عنترة نفسه (المعلقة : ٧١ و ٧٥) وذلك على سبيل الترخيم . ولعلّ هذا من الاسباب التي دفعت الفصاحين الى اسقاط تائه .

فتملأ اقسامها فخرًا وحماسة ، وكرم اخلاق ، ونبالة مقصد ، وتسمو بطالعيها الى اشرف العواطف ، اذ تسير بهم على آثار ذاك العبد صاحب النفس الحرّة الابيّة.

كل هذه الصفات الكاملة لم يخترعها مؤلف القصة ، او مؤلفوها ، بل وجدوا اصولها في ما ذكرناه من المعروف عن اخلاق عنترة وصفاته . ولكنهم اجروا فيها لمخيّلتهم العنان ، فتوسّعوا في بعضها ، وابدلوا بالبعض الآخر ما كان اكثر ملاءمة للغاية المتوخاة ، وبالغوا في ذكر المعارك الحربية التي خاضها بطلهم ، وزادوا عليها ما كان من شأنه ان يزيد في اظهار بطشه . وهم على ذلك لا يقفون عند حدّ ، ولا يأخذون بتحفُّظ ، فاذا ابتدوا جزموا دون تردّد ، واذا نفوا قطعوا دون تمييز ، حتى اصبح « عنترهم » لا يهاب جيشًا مهما بلغ عدده ، ولا يخشى مهالك مهما تنوّعت اسبابها ، ولا يتراجع امام عقبة مهما كان نوعها ، فاذا قاومته الالوف زعق عليها فبدّدها ، واذا صدّته الجان اعمل فيها حسامه فصرع افرادها ، واذا نبا رمحه عن خرق دروع قرنه رمى به الارض وضرب صدر القرن بقبضته فانفذها من ظهره .

ولما كان لا بدّ من معاكسة تُظهر فضل هذا البطل ، فتقوم مقام النياهب اذ تحيط بالنور فتزيد في سطوعه ، اخذ القصّاصون يتوسّعون في المصاعب التي لاقاها عنترة في حياته ، وترجع اسبابها الى امرين : لونه ، وحبه لعبلة .

اما لونه فقد يظهر اشدّ سوادًا في القصة منه في التاريخ ، وذلك نتيجة ما اشرنا اليه من ولوع القصّاصين بالمبالغة ، فيجلب عليه احتقار الجميع بما يدلّ عليه من رداءة الاصل ، وخبث المولد . فيحتمل عنترة ذلك بكل صبر ، ويكفّر عنه بالاعمال الباهرة والشعر الكثير .

واما حبّه لعبلة فلا نخطئ اذا عددناه الموضوع المهمّ في القصة ، لان مآتي عنترة جميعها ، سواء كانت في الحرب او في السلم ، تدور حول غاية واحدة وهي الاقتران بعبلة . فضلًا عمّا سبّب له هذا الحب من احتقار عمه مالك وابنه عمرو ، ومن مناظرة عمارة بن زياد « معدن الخبث والفساد » واخيه الربيع ،

فحقدهما الشديد ؛ الى غير ذلك مما يتضافر كله على تشييد العقبات كؤوداً في سبيل البطل الذي ينتصر عليها جميعاً ، فيفوز بالفضل الاسمى ، والفخر الارفع ، مرتقياً الى اعلى منصب في محيطه فيصبح « الحصن المشيد لال عبس » يدافع عنهم في حياته ، وبعد وفاته ايضاً ، اذ يتخيّل الراوي تلك الخاتمة الفاجعة لحياة البطل المجيد ، فيأخذ برواية ابن الكلبي عن موت عنترة جريحاً بسهم الاسد الرهيص ، ويحوّر فيها ما شاءت مخيلته ، فيصبح الاسد الرهيص بطلاً شديداً كان عنترة قد وتره بقلعه عينيه ، فغدا يستنح الفرص للانتقام ، متمرناً على الرماية ، فالاصابة ، لدى سماعه صوتاً او حركة ، حتى انه اذ يشعر بحسّ عنترة يرميه بسهم مسموم ، فيقطع مطاه . اما عنترة فيحسّ بقشعريرة الموت تسري في عروقه ، فيركب جواده ملتثماً ، ويقف على باب المضيق مستنداً الى رمحه ، حتى يجوز قومه العقبة ويبعدوا عن العدوّ ، والفضل « لحصنهم » الذي يحميهم حتى في مماته . ثم يبقى الجسد منتصباً على ظهر «الابجر» الساكن ، والاعداء يرقبونه عن بعد ولا يجرأون على الدنوّ منه ، الى ان يطول بهم الانتظار ، ويخطر لاحدهم استعمال حيلة تخرج الجواد من جموده ، فيمايل جسد البطل الاسود ، ويسقط على الحضيض .

هذا المشهد الجميل كان حقيقاً باختتام تلك الحياة الملأى بالمفاخر . ولقد اخذ بقلوب جميع من وقفوا عليه ، فأعجبت به الغربيون بعد الشرقيين ، منذ ترجمت القصة الى لغاتهم حتى ايامنا هذه ، وقد اعاد ذكراه المرحوم شكري غانم في روايته الافرنسية الشهيرة « عنتر » التي عرضت مشهد وفاة ذاك العبد بكل ما يستحق من ابهة وعظمة على اشهر مسارح باريس . وقد ارتفع الروائي اللبناني ببطله فوق الدرجات التي اوصله اليها القصّاص فاضاف الى شجاعته ، وكرمه ، واخلاصه ، وحلمه ، صفة نادرة في ذاك العصر ، الا وهي روح الوطنية التي تدفعه الى السعي في سبيل توحيد القبائل العربية في حكم ملك واحد . واذ لا يمكنه الموت المفاجئ من تحقيق تلك الوحدة ، يتنبأ عنها ، قبيل وفاته ، في مقاطع من اروع الشعر واشجاه ، يختمها بقوله :

Et, des déserts sans fin, les peuplades arabes

Surgiront, au lever de leur croissant nacré! [1]

. . .

هذا « عنترة الاسطورة » كما يبدو لنا واضحاً في « القصة » وما اليها من الاحاديث . اما مصدر هذه الحكايات ، وتحديد زمان نشأتها ومكانها ، واول من باشر تأليفها، فمن الصعب الجزم فيه.

لا ريب في ان العرب كانوا ، كسائر الشعوب ، يتغنون بامجاد ابطالهم الاقدمين ، وينسبون اليهم من الخوارق ما كان يتضخم عصراً فعصراً ، قاصدين ان يقيسوا منهم امثلة سامية للشجاعة والكرم وسائر صفات الرجولية. وقد ورد في آثارهم القديمة شيء من هذه الحكايات عن عنترة ؛ فانهم كانوا يتناشدون اشعاره في صدر الاسلام ، ويتناقلون غرائب مواقعه وحوادث بطشه اضراماً للحماسة في قلوب الجنود ابان الحرب ، او تفكهةً وتسليةً في ايام السلم .

فكانت تلك الاخبار المتفرّقة ، التي بقي شيء منها في كتب المحاضرات ، والتي كانت في اكثرها لا تبعد عن الحقيقة ، بمثابة نواة اجتمع حولها اساطير جمّة لمدّة مؤلفين او قصّاصين ، اطلقوا فيها العنان لمخيّلتهم وشعورهم ، كما قدّمنا ، فراجت عند الشعب ، وتنوقلت من عصر الى عصر ، ومن مكان الى آخر ، وهي عرضة للزيادة والنقصان ؛ حتى قيّض لها رجل على شيء من العلم بتاريخ الجاهلية وما اليه من العادات والاخلاق والآداب ، وعلى حصّة من الذوق في التأليف ، فجمع اشتاتها ، وضمّها في شبه وحدة ادبية ، مؤلّفاً منها تلك القصة الحماسية الكبيرة المعروفة « بسيرة عنتر » . فمن هو هذا المؤلف ؟

في ابتداء بعض السياقات من القصة ، يرد اسم الاصمعي ، او ابي عبيدة ، او جهينة الاخبار؛ او غيرهم من الرواة ، وهي تُعزى في اولها الى الاصمعي . فهل من صلة بينها وبينه ، او بينها وبين احد معاصريه من العلماء المعروفين ؟

---

(١) Chekri - Ganem, *Antar. Paris, 1910, Acte II, sc. 3e.*

انه لمن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، ان نجيب بالايجاب ، لان اسلوب القصة يختلف كل الاختلاف عن اسلوب ذاك العصر ، ولان فيها من المفوات التاريخية ، وانواع الغلات ، والخلط ، والركاكة ، وضعف التأليف ما ينفي هذه الصلة . ولعل المؤلف اراد ان يزيد روايته ثقة ، فاسندها الى الاصمعي ومن على شاكلته من الرواة المشهورين بالاطلاع على تاريخ العرب وطرق معيشتهم .

هذا وقد ورد في احدى طبعاتها اليروتية انها من وضع يوسف ابن اسماعيل المصري . وهو رجل اظهر البحث انه كان يعيش في مصر ، ايام الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥ - ٩٩٦ م) ، اي في اواخر القرن العاشر للمسيح ، ويتنادر باخبار العرب وحوادثهم . وكان ان حدث ريبة في بلاط الخليفة المذكور ، فلهج بها الناس كثيرًا حتى ساءه ذلك ، فاشار على يوسف ان ينشر بين القوم ما يشغلهم . فباشر يوسف كتابة القصة وتوزيعها حتى شغل الناس بها عن امر الخليفة . وكان من تلطفه في التشويق ان قسم الكتاب الى عدة اجزاء بلغ بها البعض ٧٢ ، والتزم في كل جزء ان يقطع الكلام عند معظم الامر ، فيتطلب المطالع الجزء التالي .

وهناك رأي آخر يستند الى قول ابن ابي أصيبعة ، ومفاده ان واضع القصة هو ابو المؤيد محمد بن المجلي بن الصائغ الجزري الطبيب المعروف « بالسنتري » ، لانه « كان في اول امره يكتب احاديث عنتر العبسي فصار مشهورًا بنسبته اليه »[1] . اما زمن ابن الصائغ هذا فيمكننا تحديده بما نعرف من انه كتب رسالة الى حجة الدين مروان ، وزير الاتابك زنكي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة ، اي سنة ١١١٥ م[2] . فيكون من ادباء منتصف القرن الثاني عشر .

ومهما يكن من نصيب ابن الصائغ في التأليف ، فان هذا القول يرجح ما قلناه من ان القصة لم ينفرد بوضعها مؤلف واحد ، بل كانت نتيجة عمل طويل

١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء — طبعة ١٨٨٢ مصر ، الجزء ٢ ص ٢٩٠

٢) راجع *J. Asiatique, 1838, I, 386*

تخيل ، وروايات مختلفة مشاهة، لا يمكننا حصر زمان نشأتها ، التي عليها يوسف ابن اسماعيل في اواخر القرن العاشر فجمع متفرقها على رسم رآه موافقاً ؛ ثم قد يكون لابن الصائغ ، الذي اتى بعده بمائتي سنة ، يدٌ في تبويب حوادثها وتقسيمها ، كما قد يكون يدٌ لغيره ايضاً مما لم نعرفهم . يعزّز ذلك ما نراه من التباين في ما وصل الينا من رواياتها المختلفة ، وكلها تُردّ الى ثلاث : « السيرة الحجازية » وهي اطولها ، « والسيرة الشامية » ، « والسيرة العراقية » وهي لا تختلف كثيراً عن الثانية .

والقصة ، في مجملها ، مكتوبة باسلوب سهل مسجّع ، فيها كثير من التلميح الى حوادث العرب القديمة ، وحروبهم ، وامثالهم ، واشعارهم . وقد نالت حظّاً وافراً من الاعجاب والانتشار في الشرق والغرب . فكان متكلمو العربية في سورية ومصر وبلاد المغرب ، ولا يزالون ، يحيون لياليهم في القهاوي او في بيوتهم لسماع القصاصين يروون حوادث بطلهم المحبوب . ومما يدل على شغفهم في ذلك ما رواه اسكندر اغا ابكاريوس قال:

« بلغنا عن رجل من اهل حمص كان يحضر كل ليلة الى حلقة القصّاص يسمع فصلاً من قصة عنترة . ففي احدى الليالي تأخر في حانوته الى ما بعد المغرب ، فحضر الى هناك بدون عشاء . وكان في تلك الليلة سياق حرب عنتر مع كسرى ، فقرأ القصّاص الى ان وقع عنتر في الاسر عند الفرس ، فحبسوه ووضعوا القيد في رجليه . وهناك قطع الكلام ، وانفضّت الناس ، فدخل على الرجل امر عظيم واسودت الدنيا في عينيه ، وذهب الى بيته حزيناً كئيباً . فقدمت له زوجته الطعام ، فرمى المائدة برجله ، فتكسرت الصحون وانصبّ ما فيها على فرش البيت ، وشتم المرأة شتماً قبيحاً ، فصادمته في الكلام ، فضربها ضرباً شديداً ، وخرج يدور في الاسواق ، وهو لا يقر لهُ قرار . ثم غلب عليه الخيال فذهب الى بيت القصّاص ، فوجده نائماً ، فايقظهُ وقال لهُ : « قد وضعت الرجل في السجن مقيداً ، وانيت تنام مستريح البال ! فارجوك ان تتكفل لي هذا السياق الى ان تخرجه من السجن ، فاني لا اقدر ان انام ولا يطيب عيشي ما دام على هذه الحال . وانظر ما تجمعهُ من الجمهور في ليلتك ، فانا اعطيك اياه الآن . فاخذ القصّاص الكتاب ، وقرأ لهُ باقي السياق حتى خرج عنترة من السجن . فقال له : « اترّ الله عينيك واراح بالك . الآن طابت نفسي ، وزالت همومي ، فخذ هذه الدراهم ، ولك الفضل . ثم انصرف الى بيته مسروراً ، وطلب الطعام واعتذر للمرأة بان القصّاص وضع لهُ القيد في رجل عنتر ، وهي جاءته بالطعام ليأكل ، فكيف يمكنهُ ان يذوق طعاماً وعنتر محبوس مقيد قال : « وانّا الان قد ذهبت الى بيت القصّاص ،

وقرأ لي باقي الحديث الى ان اخرجه من السجن ، والحمد لله ، قد طابت نفسي ، فهاني ما عندك من الطعام واعذريني فما فرط مني . » (١

في الربع الاول من القرن الماضي ، وقف المستشرق كاردن دي كاردون (Cardin de Cardonne) على نسخة منها في القسطنطينية ، فحملها الى باريس حيث كتب عنها دي برسفال الابن عدة مقالات في المجلة الاسيوية ، ونشر بعض فصولها في « المنتخبات الشرقية » (Chrestomathies Orientales) سنة ١٨٤١ ، وفيها يقول : « يرى المطالع في سيرة عنترة صورة أمينة لحياة عرب البادية الذين لم تتأثر اخلاقهم بكرور الزمن . ففيها يرى صفاتهم جميعها مصوّرة بكل دقة من اكرام للضيف ، ورغبة في الآثار ، وحب ، وسخاء ، وحماسة تدفعهم الى الغزو والنهب ، وشغف طبيعي بالشعر . فهي هي الروايات الهوميرية عن حروب العرب القديمة وايامهم قبل محمد ، وعن ابطالهم الاقدمين . ثم ان الانشاء اللبق المتنوّع ، والاخلاق الظاهرة بقوة والمجدّدة بفن ، تزيد في قيمة هذا التأليف . فهي على الجملة « الياذة العرب » . وقد زاد كليمان هوار (Huart) على قوله . انه على هذه الطريقة كان اسكندر دوماس (Dumas) الاب يكتب تاريخ فرنسة (٢ .

وقد ترجم القسم الكبير منها الى الفرنسوية في طبعات مختلفة من مطوّلة ومختصرة خمسة مستشرقين هم : دي كاردون ، ودي برسفال المذكوران ، وشربونو (Cherbonneau) ، ودوغا (Dugat) ، ودوفيك (Devic) . وكان هاملتون (Terrik Hamilton) قد سبق وترجم نحو ثلثها الى الانكليزية ونشره في اربعة مجلدات ، في لندن سنة ١٨٢٠ . ولها غير ذلك ترجمات الى اللغات المختلفة كالالمانية والتركية . ومن شاء الاطلاع على عناوين طبعاتها وترجماتها بالتفصيل الوافي فعليه بكتاب المستشرق شوفن في مآخذ الكتب العربية (٣ .

---

١) اسكندر آغا ابكاريوس : منية النفس في اشعار عنتر عبس ، ص ٥ – ٦

٢) اطلب Cl. Huart, *Littérature arabe, 1923, p. 367*

٣) V. Chauvin, *Bibliographie des ouvrages arabes, III, 11* .

اما النصّ العربي فله عدّة طبعات منها الطبعة التي بدأ بها سليمان الحراثي والاب برقاد (Bourgade) في ذيل جريدة « برجيس باريس » واخذا بنشرها على حدة . ولكن لم يظهر منها الا جزءان من اثني عشر ، وذلك سنة ١٨٦٥ و ١٨٦٦ ثم طبعت « السيرة الشامية » في المطبعة اللبنانية ليوحنا غرزوزي في بيروت ، فظهرت سنة ١٨٧١ في ٥٢ جزءاً كل جزء يشتمل على ٣ كتب ما عدا الاخير فعلى كتابين ، وذلك في ٩ مجلدات . وقد طبعت ايضاً في المطبعة الادبية سنة ١٨٨٣ — ١٨٨٥ ، في ٦ مجلدات و١٥٥ كتاباً . اما « السيرة الحجازية » فطبعت في مصر سنة ١٣٠٦ — ١٣١١ هـ. (١٨٨٨—١٨٩٣) في ٣٢ جزءاً . ثم توالت طبعاتها متعدّدة .

آثاره

الديوان

مما لا شك فيه ان عنترة اشتهر بشعره اشتهاره بفروسيته ، بل هو شاعراً اشهر منه فارساً عند المؤرّخين . على ان هذه الشهرة لا ترتكز على معلقته وحدها ، ولكن على سائر شعره ايضاً ، وهو متداول معروف منذ القرن الثامن حتى ان ابن سلّام الجمحي[1] المتوفى في اواسط القرن التاسع ، ذكر ان له « شعراً كثيراً »[1] تناقله الرواة ، وفي مقدّمتهم الاصمعي ، حتى اجتمع له ديوان ذكره حاجي خلفا في فهرسته[2] . الّا اننا لا نعلم ما هي الصلة بين هذا الديوان والديوان الذي طبع مرّات في ايامنا مشروحاً وبدون شرح ، لاننا نرى في هذا الاخير كثيراً من القصائد التي لا تمكن نسبتها الى عنترة لأسباب سنتبسّط في الكلام عليها بُعيد هذا .

وان احدث هذه الطبعات الطبعة المصرية المشروحة بقلم اديب مصري ،

---

١) ابن سلّام الجمحي : طبقات الشعراء ، ص ٢٥

٢) حاجي خلفا : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، طبعة Flügel ، ٣ : ٢٩٨ ، تحت رقم ٥٥٨٦

بعنوان « شرح ديوان عنتر بن شدّاد » ، وهي مبنيّة على ما نشره المرحوم الاب شيخو في «شعراء النصرانية»[1] سنة ١٨٩٠ ، من شعر عنترة الصحيح والمنحول ، وعلى الديوان الذي طبعه لاوّل مرة في بيروت اسكندر اغا ابكاريوس سنة ١٨٦٤ ، ثم سنة ١٨٨١ ، بعنوان « كتاب منية النفس في اشعار عنتر عبس » ، وتعدّدت طبعاته في بيروت ايضاً واشهرها طبعات خليل الخوري ، ومكتبة صادر ، وفيه كل ما نُسب الى عنترة من الشعر مرتباً على الابجدية مما يبلغ نحو ١٥٠٠ بيت ، مأخوذة عن كتب الادب وعن القصة ايضاً . اما شعر عنترة الذي لا يستند الى القصة فقد اهتم به المستشرق ابن الورد (Ahlwardt) فجمع منه نحو ٣٣٥ بيتاً نشرها مرتبةً على الابجدية في لندن سنة ١٨٧٠ في كتابه الموسوم ، بـ « العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين » مع دواوين النابغة ، وطرفة ، وعلقمة ، وزهير ، وامرئ القيس . واردفها بتعليقتين ذكر في اولاهما ما وقف عليه في كتب الادب القديمة مما لا يدخل في ما رواه الاصمعي ، وابو عمرو بن العلاء ، والمفضل ، وابو سعيد السكري ، من الشعر المنحول الى عنترة فكان نحو السبعين بيتاً ؛ وفي الثانية ما وقف عليه من ذاك الشعر المنحول في الكتب المتأخرة ، وهو لا يتجاوز الابيات العشرة .

صحة نسبته

وهنا يجب علينا ان نقف متأمّلين عن صحة نسبة هذه القصائد ، مجتهدين في التمييز بين شعر « عنترة التاريخ » وشعر « عنترة الاسطورة » ، اذ لا شكّ ان مؤلفي القصة كان لهم اليد الطولى في صنع القصائد العديدة التي نحاوها بطلهم ، لاسيما ما يُروى منها قبل مبارزة مهمة ، او على اثر معركة شهيرة ، او في اثناء سفرة طويلة . هذا وستكون طريقنا في محاولة هذا التمييز على نوعين : طريق النقد الخارجي او التاريخي ، وطريق النقد الداخلي او الادبي .

اما الاولى فقد لا تقودنا الى الكثير من النتائج الراهنة اذ لا يمكننا تحديد زمن النحل على الاطلاق ، ولكنها تفيدنا فائدة جلّى في افراد قصائد القصة عمّا تقدّمها ، فالاستنتاج بان هذه اقرب الى الصحة لورود ذكر لها ، او لبعض

١) الصفحة ٧٩٤-٨٨٣

ابياتها ، في كتب تقدّم وضعها زمن انشاء القصة . ونحن اذا اعتبرنا يوسف ابن اسماعيل المصري مؤلفاً لشتات تلك الرواية ، ومخرجاً لها على ما يقابل الصورة التي نعرفها بها ، لزمنا ان نفتش في الكتب التي سبقت زمن يوسف ، وهو اواخر القرن العاشر للمسيح ، حتى اذا وجدنا فيها شيئاً من شعر عنترة اقررنا مبدئياً انه من غير صنع القصّاصين . ثم ان لم نرَ سبباً لتجريح رواته ، او زعماً بنسبته الى غير عنترة ، امكننا الاستنتاج ، وان موقتاً ، بانه ثابت صحيح .

واما الطريق الثانية ، او طريق النقد الداخلي ، فتظهر فائدتها اذا ما وصلنا الى هذه النقطة من الاستنتاج التاريخي . وذلك يكون بان ندرس هذه القصائد التي رجّحنا نسبتها بالاستناد الى التاريخ . فنستوعب صفاتها ، ونفهم روحها وشخصيتها جامعين ذلك الى ما نعرفه من روح الشعر الجاهلي الاجمالية . ثم نطبّق عليه سائر الشعر المنسوب الى عنترة مما لم تتمكن من تحقيق تاريخ وضعه ، فما وافق منه تلك الروح السائدة في الشعر التاريخي رجّحنا صحته ، وما لم يوافق منه ، رجّحنا نحله او جزمنا بصنعه ، على حسب ابتعاده عن روح الشعر العنتري خاصة ، والشعر الجاهلي عامة .

فاذا وضعت هذه الخطة قلنا ان اكثر الشعر المطبوع في مجموعة ابن الورد ، قد ورد شيء من ابياته في الكتب السابقة وضع القصة . وفي مقدمة ذلك المعلقة ، فقد ذكرت كل ابياتها مجملة او متفرقة في جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي[1] ، وطبقات الشعراء لابن سلّام الجمحي[2] ، والشعر والشعراء لابن قتيبة[3] ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ،[4] والكامل للمبرّد ،[5] وتهذيب الالفاظ لابن السكيت ،[6] والاغاني للاصبهاني ،[7] وأمالي القالي[8] . فيمكننا

---

١) طبعة مصر ١٣٣٠ هـ ، ص ١٨٨-١٩٩ . ٢) طبعة Hell ، ص ٣٥

٣) طبعة de Goeje ، ص ١٢٠—١٢١ . ٤) في الروائع ٩ : ٩٧ .

٥) طبعة رَيت Wright ، ص ٤ ، ٨ ، ٥٤ ، ٩٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٤٤١ ، ٥٠٣ ، ٧٢٩ ، ٧٤٢ ، ٧٥٨ . ٦) طبعة شيخو ، ص ٤٢٣ ، ٤٦٤ ٧) طبعة برلاق ، ١ : ١٠٦ ؛ ٢ : ١٢٧ ؛ ٧ : ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ ٨ : ١٢٤ ، ١٢٥ . . . ٨) طبعة مصر ٢ : ٢٨ ، ١٤٦ .

الاخذ اذًا بصحة نسبة المعلقة الا بعض ابيات فيها كالمطلع الذي يدفعه اكثر الرواة ان يكون لعنترة ، ومنهم الاصمعي وابن الاعرابي ، واول القصيدة عندهما: « يا دار عبلة ... »[1] وكالابيات التي تُوسّع فيها بمعاني عنترة كسلسلة «يدعون عنتر والسيوف كأنها...» ، والسهام كأنها...» ، والدروع كأنها...»[2] وكالبيتين اللطيفين الملحقين بها مؤخرًا : « ولقد ذكرتك ... »[3].

وكذا القول عن القسم الاكبر من قصيدتيه اللاميتين المنشورتين في الروائع ٢٧ : (ص ١٧ — ٢٥) وهائيته الفخرية (ص ٢٥ — ٢٨) ، وقصيدته في يوم عُراعر (ص ٢٨) ، وحائيته في هجاء الجعد ،[4] وبائيته في يوم الغروق[5] ، فاننا نرى الكثير من ابياتها واردة في ما تقدم ذكره من الكتب وفي غيرها من المجاميع السابقة القرن العاشر كأمالي القالي[6] ، والكامل[7] ، وتهذيب الالفاظ[8] ، والعقد الفريد[9] ، والنوادر لابي زيد الانصاري[10] ، والاغاني في مواضع عدة.

فاذا اتخذنا هذا الشعر ، الراجحة نسبته بفضل النقد الخارجي ، مصدرًا نستمد منه روح شاعرية عنترة ، ومقياسًا نعرض عليه سائر شعره المنسوب فنستخرج منه اصول نقدنا الداخلي ونطبقها على ذاك الشعر ؛ اذا قمنا بهذا العمل ، نتحقق ان ما بقي من الشعر العنتري بين النحل ، ظاهر الصنعة ، وانه لجدير بنا ان نخلّص شاعرنا منه ، لما فيه من مباينة لروح شعره الحقيقي ، فضلًا عن كونه متأخر الوضع لم يظهر في كتب الادب الا بعد تأليف القصة .

بقي علينا ان نبحث في قيمة هذا الشعر المنحول ، وفي الاساليب التي اتخذها

١) الاغاني ٨ : ١٢٥ — وشرح الانباري للمعلقة طبعة *Rescher* ، ص ٤ — وابن سلّام : ك . م . ص ٣٥ ، وهو يذكر المعلقة بمطلعها : « يا دار عبلة » .
٢) الطلب الروائع ٢٧ : ١٥ .
٣) الديوان : شرح اديب مصري ، ص ٢٢٢ ، — وابن الورد : ك . م . *p. 111*
٤) ابن الورد : ك . م . ص ٢٥-٢٦ .
٥) ابن الورد : ك . م . ص ٥١-٥٢ .
٦) الطبعة المذكورة ، ٢ : ٢٢ .
٧) الطبعة المذكورة ، ١٧٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٠ ، ٣٥٠ .
٨) الطبعة المذكورة ، ص ٥٩٣ ، ٦٢٤ .
٩) طبعة بولاق ، ١ : ٤٠ — والروائع ٩ : ٦١ .
١٠) طبعة بيروت ، ص ١٢٢ .

الناحلون والمثل التي ساروا عليها في وضعهم ، وفي اي عصر جرى ذلك على التقريب ، فنقول :

لا يلبث دارس شعر عنترة المنحول ان يتحقّق تباين شخصيات واضعيه ، واختلاف عصورهم سواء كان ذلك في معنى الشعر اي موضوعاته ، او في مبناه ، فيقيّد ملاحظاته لدى قراءة كل قصيدة ، ويجمع ذلك ، ويقابل ، ويوازن ، واذا به ينتهي وقد قسم القصائد الى اربعة اقسام من حيث روح الشعر ، ومن حيث اسلوبه ايضاً :

يرى اولًا قسماً مهماً احتذي فيه بشعر عنترة نفسه من حيث وصف المعارك ، والفخر بالاعمال الحميدة ، وعلوّ الهمة ، وبيض الفعال التي من شأنها ان تمحو سواد الجلد ، وتُسبل الستر على دناءة الأصل . وقصائد هذا القسم اكثر من ان نشير الى مطالعها . على انه لا يمكننا حصر زمن تأليفها لان فيها المتين القديم ، والمتوسط ، والركيك المتأخر الآخذ بقسط مع اغلاط المولّدين والمحدثين .

وهناك قسم ثانٍ يقترن فيه وصف الشجاعة العنترية بايراد الحكم العامة والافكار الشاملة ، فكأن واضعيه ساروا فيه على اسلوب المتنبي مشرباً باسلوب شاعرنا ، فتوفقوا الى القصائد المشهورة من امثال « حكم سيوفك »[1] و« لا يحمل الحقد »[2] و« لغير العلا مني القلا والتجنّب »[3] وما على شكلها . وبعضها لا يبعد عن نفَس صفيّ الدين الحلّي في بعض حكمياته وفخرياته .

وكأن الناحلين ساروا في القسم الثالث على طريقة عمرو بن كلثوم في المبالغات ولم يكونوا من متانة الانشاء على حظّ وافر ، فاتى في اقوالهم كثير من مضحكات السرقة كقولهم :

ملأنا سائر الاقطار خوفًا فاضحى العالمون لنا عبيدا
وجاوزنا الثريّا في عُلاها ولم تترك لقاصدنا وفودا
اذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخرُّ له اعادينا سجودا . . . الخ[4]

١) شعراء النصرانية ٨٦١. ٢) شعراء النصرانية ٨١٨.
٣) » » ٨١٩. ٤) » » ٨٢٨.

وكهذا :

ونحن العادلون اذا حكمنا ونحن المشفقون على الرعيّة
ونحن المنصفون اذا دعينا الى طعن الرماح السمهريّة
ونحن الغالبون اذا حملنا على الخيل الجياد الاعوجيّة
ونحن الموقدون لكل حرب ونصلاها باقتدار جريّة
ملأنا الارض خوفاً من سطانا وهابتنا الملوك الكسرويّة ... (١

ولا يمكن ان يتقدم وضع هذا الشعر عصر الانحطاط .

اما القسم الرابع ففيه مطالع جذّابة وتعابير غاية في الرقة ولطف الشعر تدفعنا الى التفكير بالبهاء زهير ، وبابي فراس ، وبين اليهم من شعراء العصر العباسي الثالث والرابع ، يقترن ذلك احياناً بنوع من التشكي العذب على طريقة الطف الشعراء الغزلين ، كما نرى في المطالع الآتية :

لأيّ حبيب يحسن الرأي والردُّ وأكثر هذا الناس ليس لهم عهدُ ! (٢
و اعادي صرف دهر لا يُعادى واحتمل النعيمة والبادا ! (٣
و اذا فاض دمعي واستهلّ على خدي (٣

تضيف الى هذا القسم ما لا يمكن الارتقاء بزمن . وضعه الى ما قبل العصر العباسي الثالث لما فيه من تكلّف الجناس كهذا البيت :

لقد عام القبائل ان قومي لهم حدٌّ اذا لبس الحديدُ (٤

او هذا :

اصدّق منه ازور خوف ازوراره وارضى استماع الهُجر خشية هجره (٥

قيمة شعره

لا نطيل الكلام في قيمة عنترة ، بعد ان افضنا في موضوعات شعره ، وما اختصّ به من طريقة تبعه عليها بعض النظّامين فنحاوه من اشعارهم الشيء الكثير . على انه يجدر بنا ، وقد انهينا هذا الدرس ، ان نشير الى

١) شعراء النصرانية ٨٨١ .
٢) شعراء النصرانية ٨٢٩ .
٣) شعراء النصرانية ٨٢٢ .
٤) ابن الاثير : المثل السائر ، ص ٤٥٦ .
٥) ابن الورد : ك . م . ص ١٨٠ .

ما امتازت به شخصية شاعرنا من اسلوب فخر استحدثه لنفسه ، حتى عُرف به ، على كثرة الشعر الفخري آنذاك ، فاصبح كعلامة فارقة تسم بطولته فتظهرها بارزة بين جهرة الابطال الاقدمين . وشرح ذلك ان عنترة كان عارفاً بقوة بطشه ، بصيراً بوصف شجاعته ومواقعه ، فاخترع لنفسه تلك الوسيلة لتبيان مقدرته ، وهي ان يصف اولاً عدوه فيصوره اشجع الفرسان ، واكملهم صفات للحرب ، ثم يذكر انه قتله بضربة سيف او طعنة رمح ، فينال فخراً اسمى ومجداً اعظم[1] ، فكان في ذلك مبتكراً .

وكان مبتكراً ايضاً في مطالعه التي خرج في اكثرها عن العادة المتبعة قبله في تقديم النسيب[2] ، وفي تصاويره الجميلة التامة . ولعل اظهرها جدة ، بالنسبة الى الجاهلية ، تلك الابيات الاربعة التي يصف فيها امرأة يُرسل اليها جاريته «لتجسس اخبارها» ، فيضع امامنا مشهداً مصوراً بلطف وفن لم نتعودهما الا في شعر عمر بن ابي ربيعة[3] .

وقد رافقه هذا الابتكار في مبنى شعره فلم يتراجع امام استعمال التضمين ، وهو نادر في الشعر القديم ، بل اطلق لقلمه العنان في استعماله ، وكثيراً ما نجح فيه كقوله :

فان يك عزٌّ في قضاعة ثابتٌ فانَّ لنا ، برحرحان وأسعدِ ،
كتائبَ شهباً فوق كلّ كتيبةٍ لواءٌ كظل الطائر المتصرِّف

فيمكننا الاجمال قائلين : ان عُدَّ عنترة شاعر الفخر والحماسة بلا منازع ، فانه شاعر الابتكار والشخصية ايضاً .

---

١) المعلقة : ٤٨ و ٤٩ ؛ و ٥٣–٥٩ – واطلب الروائع ٢ : ٢٢ .
٢) اطلب الروائع ٢٧ : ٣٥ – واكثر مطالع الديوان في طبعة ابن الورد .
٣) اطلب ، في طبعة ابن الورد ، الابيات ٦٤–٦٨ من المعلقة ، ص ٤٨ .